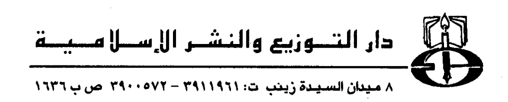


سعد بن أبى وقاص

بطل القادسية

محمد محمود القاضى


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ففتح به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًا .

وبعد،

فإن الجهاد فى سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وما تركه قوم إلا ذلوا، ومنذ أن أمر الله المسلمين بقتال المشركين فى قوله تعالى : **﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾** [التوبة: ٣٦]، انطلقت كتائب الجهاد فى سبيل الله تفتح البلاد شرقاً وغربًا ابتغاء رضا الله **﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ٧٤].

وكانت كـتائب الجـهاد تدرك هدفـها جيـدًا، فقـد كانت رسالتهـا فى كل لقاء لها مع أعـداء الله واضحة، وهى: «إن الله ابتـعثنا لنخـرج من شاء من عـبادة العـباد إلى عـبادة الله وحده، ومن ضيق الـدنيا إلى سعتهـا، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وكان يقود هذه الكتائب قادة عظام صدقوا ما عاهدوا الله عليـه، فـصـدقـهم الله، وفـتح على أيديـهم، وأيدهم على أعدائهم فى معارك فاصلة.

وسوف نـقدم فى هذه السلسلة نماذج فـريدة لقادة الفـتح الإسلامى الذين ضربوا أروع الأمثلة فى فنون القيادة والحرب، وكـانت المعارك الحـربية التى قـادوها دليـلاً على عبـقريتـهم وعظمتهم، فيجـدر بكل مسلم أن يدرس سيرة هؤلاء القادة؛ ليقتدى بهم فى حياته، والله نسأل أن يرزق أمتنا بأمثال هؤلاء القادة الأفذاذ، فيفـتح الله على أيديهم، ويعيدوا للإسلام عزه ومجده.

المؤلف

نور الإيمان

أشرقت الشمس ذات صباح، وأرسلت أشعتها المتلألئة على رمال مكة، فصارت كأنها قطعة من النور.

وبدأ الفتى القرشى سعد بن أبى وقاص يخطو بخطوات واثقة نحو حانوته الذى يصنع فيه القسى والسهام، ولكن سعدًا وهو يسير فى طريقه إلى حانوته هذه المرة كان يشعر بشىء عجيب، فالأشياء من حوله تكاد تبتسم سرورًا وفرحًا، فما سر هذه السعادة التى يراها فى كل شىء من حوله هذا اليوم؟ إنه يرى هذه الأشياء كل يوم، الشمس، الرمال، الطريق، الحانوت.. لم يعرف سعد تفسيرًا لهذا الشعور.

ووصل سعد إلى حانوته، وبدأ يمارس عمله بمهارة

ودقة، وبينما هو منشغل فـى عمله إذ أقبل عليه رجل من خيـرة أهل مكة، وأحب الناس إلى قلوب أهلهـا، إنه أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة.

وعندما رأى سعـد أبا بكر سُرَّ به، واستبشـر خيرًا فى هذا اليـوم، فقـد كان سـعـد يحب أبا بكر حبًا شـديدًا، ويأنس به رغم ما بينهما من فارق فى السن، فأبو بكر فى الثامنة والثلاثين من عمره، وسعـد لم يتجاوز بعد السابعة عشر.

ونظر سـعد إلى وجـه أبى بكر، فرأى وجـهه يشـرق نورًا، فابتسم سعـد وقال أرى نورًا يشرق من وجهك هذا الصباح يا أبا بكر.. إنه يشبـه هذا النور الذى رأيته ينبعث من كل شىء حولى فى هذا اليوم المبارك.

فابتسم أبو بكر وقال:

إنه نور الإيمان يا سعد، نـور الإسلام الذى أكرمنا الله به، وجاء به إليـنا الرجل الصادق الأمين محـمد بن عـبد

الله، وأنا أدعوك إلى الإيمان بالله ورسوله يا سعد، فأنت أهل لهذا الأمر، وما مثلك يتأخر عن قبول هذه الدعوة المباركة.

وعندما سمع سعد هذا الكلام شعر بارتياح شديد، وتفسير مقنع لما حدث له فى هذا الصباح، إنه نور الإيمان حقًا، وما كان لسعد أن يتردد فى قبول هذه الدعوة الطيبة، وخاصة أن يعرف قدر أبى بكر ورجاحة عقله، وأسلم سعد، فكان سابع سبعة فى إسلامه بعد ستة، وصدقت فيه فراسة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ.

وذهب سعد مع أبى بكر إلى رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه بين يدى رسول الله ﷺ، ففرح به الرسول ﷺ فرحًا شديدًا.



اختبار صعب

شاءت الأقدار أن يبدأ سعد رحلة جهاده فى سبيل الله منذ اللحظة الأولى التى أعلن فيها إسلامه، ولم تكن بداية سعد فى رحلته الجهادية تخطر له على بال، لأنها كانت مع أحب الناس إليه، وأقربهم إلى قلبه؛ مع أمه التى أحبها وأحبته، ويضرب به المثل فى بره بها، فلم يكن أحد فى مكة أبر بأمه من سعد.

إنه اختبار صعب يواجهه سعد فى بداية إسلامه، فيا لها من فتنة شديدة يتعرض لها.

إن أمه عندما علمت بإسلامه غضبت غضبًا شديدًا، وأرادت أن ترجعه عن هذا الدين، فقالت له يا سعد:

ما هذا الدين الذى قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فَتُعَيَّر بى، فيقال: يا قاتل أمه.

ماذا يفعل سعد أمام هذا الاختيار؟، أيطيع أمه التى يحبها، والتى تريد أن تهلك نفسها حتى يرجع عن دينه، أم يثبت على دينه الذى يرى أنه الحق؟

وبدأ سعد يفكر، إنه لو أطاع أمه لهلك هو، ولو ثبت على دينه لنجا، وسوف تنصرف أمه عن تهديدها، فأغلب الظن أنها لن تستمر على هذه الحال.

وأصر سعد على موقفه، وقال لأمه: لا تفعلى يا أمه، إنى لا أدع دينى هذا لشىء.

ولكن أمه أصرت على أن تمارس ضغطها عليه، فربما رق لها، وخاصة أنها تعلم مقدار حبه لها، فظلت يومًا وليلة لا تأكل ولا تشرب حتى أصابها الجهد والتعب.

فلما رأى سعد إصرار أمه على موقفها، أراد أن يقطع

أى أمل لديها فى تركه لدينه الذى أحبه وعاهد الله على أن يضحى فى سبيله بكل شىء، فقال لأمه:

يا أمه، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس، فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت دينى، إن شئت فكلى أو لا تأكلى.

فلما رأت أمه إصراره، أدركت أن لن يرجع عن دينه، فأكلت وشربت.

ونجح سعد فى هذا الاختبار، وخرج منه صلبا قويًا، ونزل القرآن الكريم يؤيد موقفه، إذ قال الله تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾.

وما أشبه هذا الموقف الذى تعرض له سعد بمواقف كثيرة من فتنة الأهل يتعرض لها المؤمنون الصادقون، والاختيار يجب أن يكون واضحًا فى مثل هذه المواقف، فرضا الله سبحانه قبل كل شىء، ومحبة الله ورسوله فى قلب العبد المؤمن لا تعدلها محبة أخرى، يقول الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

وموقف سعد مع أمه نموذج رائع لكل من يتعرض لمثل هذه الفتنة، فترى سعدًا لا يطاوع أمه ويترك دينه، وفى الوقت نفسه يظل على بره بها، فالقضية واضحة، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق جل شأنه.



حصار وثبات

ويستمر سعد فى رحلة جهاده فى سبيل الله، فقد قررت قريش أن تحاصر الرسول ﷺ وعشيرته ومن آمن معه فى شعب أبى طالب، وتمنع عنهم الطعام والشراب، وتمنع المعاملة معهم بأية صورة من صور التعامل، ويدخل سعد بن أبى وقاص مع المسلمين فى الشعب، فيعانى الجوع والعطش مع رسول الله ﷺ، ومكث المسلمون على ذلك قرابة ثلاث سنوات حتى أكلوا أوراق الشجر، يقول سعد ـ رضى الله عنه ـ:

كنا قومًا يصيبنا ظلف العيش (بؤسه وخشونته) بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك، ومرنًّا (اعتدنا وداومنا) عليه، وصبرنا له، ولقد

رأيتنى مع رسـول الله ﷺ بمكة خـرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقـعة شيء (أى: صوته) تحت بولى، فإذا قطعة جلد بعير، فأخـذتها فغسلتها ثم أحرقتها فـوضعتها بين حجرين، ثم اسـتفها (أى: أخذتها غـير مبلولة بالماء) وشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثًا.

هذا نموذج فريد من سعد بن أبى وقاص لشدة التحمل فى سبيل الله، والصبر على البـلاء، فهذه المواقف وأمثالها هى التى تصنع الأبطال، وتظهر معادن الرجال.



هجرة وجهاد

ويهاجر سعد مع الرسول ﷺ إلى المدينة، ليبدأ مرحلة جديدة من مراحل جهاده فى سبيل الله.

ويسجل التاريخ لسعد بن أبى وقاص واقعة عظيمة باسمه، فهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله، وكان ذلك فى سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب، وكان القتال فيها أول حرب وقعت بين المشركين والمسلمين، وهى أول سرية بعثها رسول الله ﷺ فى السنة الأولى من الهجرة إلى «رابغ» ليلقوا عيرًا لقريش، فتراموا بالسهام، وانطلق أول سهم فى الإسلام من قوس سعد بن أبى وقاص.

وشهد سعد مع رسول الله ﷺ غزوة بدر، وأبلى فيها بلاء حسنًا، يقول عبد الله بن مسعود: لقد رأيت سعد بن

أبى وقاص يوم بدر يقاتل قتال الفارس للراجل.

وفى غزوة أحد وقف سعد إلىٰ جانب رسول الله ﷺ يدافع عنه، ويرمى بسهامه القوية أعداء الله وأعداء رسوله، ولما رآه الرسول ﷺ فى حالته هذه قال له: «يا سعد، ارم فداك أبى وأمى». فكان سعد أول من افتداه رسول الله ﷺ بأبيه وأمه.

وكسرت قوس سعد يوم أُحد من كثرة ما رمى بها، فأعطاه النبى ﷺ قوسًا أخرى، ودعا له فقال: «اللهم سدد رميته وأجب دعوته».

وشهد سعد مع رسول الله ﷺ غزواته كلها، يحصد بسهامه أعداء الإسلام، لذلك كان الرسول ﷺ يحبه ويفاخر به، فذات يوم كان بعض الصحابة جلوسًا عند رسول الله ﷺ، فأقبل سعد عليهم ، فقال النبى ﷺ: «هذا خالى فليرنى امرؤ خاله».

فقد كان أبو وقاص والد سعد ابن عم السيدة آمنة بنت

وهب أم رسول الله ﷺ، وكلاهما من بنى زهرة.

وكان سعد يحب رسول الله ﷺ ويسهر على راحته، تحكى السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وتقول: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: «ليت رجلا صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة». فسمعنا صوت سلاح، فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» . قال سعد بن أبى وقاص: أنا يا رسول الله، جئت أحرسك. فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه.

وأراد الرسول ﷺ أن يكافىء سعدًا لحسن جهاده وإخلاصه فى سبيل دعوة الله، فدعا الله له أن يرزقه سلاحًا آخر يستعين به فى جهاده، فقال ﷺ: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»

وبيَّن له الرسول ﷺ الطريق الصحيح الذى يتبعه المؤمن ليكون مجاب الدعوة، وذلك عندما طلب منه سعد أن يدعو الله له أن يجيب دعوته، فقال ﷺ: «إنه لا يستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه» فقال سعد:

يا رسول الله، ادع الله أن يطيب مطعمى، فدعا له. فكان سعد يتورع من السنبلة يجدها فى زرعه فيردها من حيث أخذت.

فكان سعد ـ رضى الله عنه ـ لا يكاد يدعو بدعاء إلا استجيب له، فقد روى فى الصحيحين أن أهل الكوفة شكوا سعدًا إلى عمر فى كل شىء حتى قالوا: لا يحسن يصلى. فقال سعد: أما إنى لا آلوا أن أصلى بهم صلاة رسول الله، أطيل الأولين وأحذف الأخرتين، فقال: الظن بك يا أبا إسحاق، وكان قد بعث من يسأل عنه بمحال الكوفة، فجعلوا لا يسألون أهل مسجد إلا أثنوا خيرًا، حتى مروا بمسجد لبنى عبس فقام رجل منهم يقال له أبو سعدة أسامة بن قتادة فقال: إن سعدًا كان لا يسير فى السرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل فى الرعية القضية، فبلغ سعدًا، فقال: اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة فأطل عمره وأدم فقره، وأعم بصره، وعرضه للفتن.

فقال جابر بن سلمة راوى الحديث: فأنا رأيته بعد ذلك شيخًا كبيرًا قد سقطت حاجباه على عينيه، يقف فى الطريق فيغمز الجوارى فيقال له، فيقول: شيخ مفتون أصابته دعوة سعد.

ولما كان يوم القادسية لم يستطع سعد أن يشهد يوم الفتح لجراح ودمامل كثيرة فى جسده، فقال رجل من بجيلة يهجو سعدًا:

ألم تر أن الله قد أظهر دينه
وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد أيمت نساء كثيرة
ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فقال سعد: اللهم اكفنا يده ولسانه. فجاء سهم طائش فأصاب هذا الرجل فخرس ويبست يداه جميعًا .



رجل من أهل الجنة

وليهنأ سعد وليطمـئن قلبه بأعظم شىء يتمناه المسلم، فقد بشـره رسول الله ﷺ بالجنة، فعن ابن عمـر قال: كنا جلوسًا عند رسـول الله ﷺ فقـال: «يدخل عليكم من ذا البـاب رجل من أهل الجنة» قال: فليس منا أحـد إلا وهو يتمنى أن يكون من أهل بيته، فإذا سعد بن أبى وقاص قد طلع.

وقد كـان سعـد نقى النفس، يحب الخـير للمـسلمين جميـعًا، فعن أنس بن مالك قال: بينمـا نحن عند رسول الله ﷺ فـقـال: يطلع الآن عليكـم رجل من أهل الجنة، فأطلع سعد بن أبى وقاص، حتى إذا كان الغد قال رسول الله ﷺ مـثل ذلك، فـأطلع سـعـد بن أبى وقـاص على

ترتيبه الأول، حتى إذا كان الغد قال رسول الله مثل ذلك، قال: فطلع على ترتيبه، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إنى غاضبت أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاث ليال، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تنحل يمينى فعلت، قال أنس: فزعم عبد الله بن عمرو أنه بات معه ليلة حتى إذا كان الفجر فلم يقم تلك الليلة شيئًا، غير أنه كان إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبره حتى يقوم مع الفجر، فإذا صلى المكتوبة أسبغ الوضوء وأتمه ثم يصبح مفطرًا.

قال عبد الله بن عمرو: فرمقته ثلاث ليال وأيامهن لا يزيد على ذلك، غير أنى لا أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أحتقر عمله، قلت: إنه لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك ثلاث مرات فى ثلاثة مجالس: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة» فأطلعت أنت أولئك المرات الثلاث، فأردت أن آوى إليك حتى أنظر ما عملك

فأقتدى بك لأنال ما نلت، فلم أرك تعـمل كثير عمل، ما الذى بلغ بك مـا قال رسـول الله ﷺ؟ فقال: مـا هو إلا الذى رأيت. قال: فلما رأيت ذلك انصرفت فدعا بى حين وليت، فـقال: مـا هو إلا ما رأيت غـير أنى لا أجـد فى نفـسى سـوءًا لأحـد من المسلمين، ولا أنوى له شـرًا ولا أقـوله. قـال: قلت: هذه التى بلغـت بك وهى التى لا أطيق.

إن سلامـة صدر سـعد هـى التى بلغت به هذه المكانة العظيمـة، وسعد ـ رضى الله عنه ـ بهـذه الصفة العظيـمة التى كان يحمـلها فى قلبه يضرب لنا المثل فـيما يجب أن تكون عليه علاقة المؤمن بأخيه المؤمن، فهو يحب لأخيه ما يحبـه لنفســه. وكان سعـد رجلا رقيق القـلب، فعن أبى أمامـة قال: جلسنا إلى رسـول الله فذكّرنا ورققـنا، فبكى سعد بن أبى وقاص فأكثر البكاء وقال: يا ليتنى مت. فقال رسول الله ﷺ: «يا سعد، إن كنت للجنة خلقت فما طال عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك».

وكان سعد جوادًا كـريما يحب الإنفاق فى سبيل الله، فعن عامر بن سعد عـن أبيه أن رسول الله جاءه يعوده عام حجة الوداع من وجع اشتـد به. فقلت: يا رسول الله إنى ذو مال ولا يـرثنى إلا ابنة، أفأتصـدق بثلثى مالـى؟ قال: «لا» قلت: فـالشطر يا رسـول الله؟ قـال: «لا« قلت: فالثلث؟ قـال: «الثلث والثلث كثـير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عـالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجـه الله إلا أجرت بها، حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك».

وقد دعا له الرسول ﷺ فى مرضه هذا قائلاً.

اللهم أذهب عـنه البـاس، إله الناس، مـلك الناس، أنت الشافى لا شافى له إلا أنت، بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك، من حسد وعين، اللهم أصح قلبه وجسمه، وأكشف سقمه، وأجب دعوته».

وشفى الله سعدًا ورزقـه أولادًا آخرين، وأطال عمره، وأصلح له عمله.

بالمدينة، ويجعل على الجيش قائدًا ماهرًا من أصحاب رسول الله ﷺ.

فوافق عمر على رأيهم، وبدأ يفكر مع من حوله فيمن يصلح لقيادة هذا الجيش. وأثناء ذلك وصلت رسالة إلى عمر بن الخطاب من سعد بن أبى وقاص عامله على صدقات هوازن، وقد كتب فى رسالته يخبر الخليفة أنه اختار له ألف فارس كلهم أصحاب شجاعة ورأى وسينضمون إلى الجيش الذى سيذهب إلى بلاد فارس.

عندئذ صاح عبد الرحمن بن عوف: وجدته.

قال عمر: فمن؟

قال: الأسد عاديًا (هاجمًا).

قال: من؟

قال عبد الرحمن: الأسد فى براثنه سعد بن مالك.

وارتاح الجميع لاختيار سعد فهو خير من يقود جند

الله ويحبط خطط الأعداء.

وأرسل إليه عمر يطلب منه الحضـور، فأقبل سعد إلى المدينة وأسرع إلى الخليفة، وأبلغه عمر أن المسلمين أجمعوا على اختـياره قائدًا للجـيش الذاهب إلى بلاد الفرس، ثم التفت إليه عمر فى حزم وقال:

يا سعد بن مالك، لا يغرنك من الله أنك خال رسول الله، وصـاحب رسـول الله، فـإن الله لا يمحـو السـيىء بالسيىء ولـكن يمحو السيىء بالحـسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء، الله ربهم، وهم عـباده، يتفـاضلون بالعافـية، ويدركـون ما عند الله بالطاعـة، فانظر الأمـر الذى رأيت رسول الله ﷺ يلزمـه فالزمـه، وعليك بالصبـر واليقظة، وتوكل على الله، وسر على بركـة الله، وما النصر إلا من عند الله.

وسـار سعـد ومعـه الجيـش إلى لقاء جنود الشـرك،

يدفعهم إيمانهم بالله والثقة فيما عنده، وكان عدد الجيش أربعة آلاف مجاهد، وبعد خروج سعد جاءته إمدادات أخرى من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان سعد فى طريقه يحشد الجنود ممن حوله من القبائل.

وبعد ذلك انضم إليه الجيش الذى كان تحت إمرة المثنى ابن حارثة الذى توفى أثناء تحرك الجيش، وكان المثنى قد ترك لسعد قبل موته وصية عظيمة يطلعه فيها على النصائح التى يحتاج إليها فى قتال الفرس، فقد كان للمثنى تجارب سابقة فى بلاد العراق.

ووصل عدد الجيش الذاهب إلى القادسية بضعة وثلاثين ألفا. وبدأ سعد ينظم الجيش، وعين أمراء الأجناد، وأمَّرَ على الرايات رجالا من السابقين إلى الإسلام، وقسم الجيش عشرة أجزاء، وجعل على كل عُشر أميرًا، ثم بعد ذلك عبأ التعبئة فجعل على المقدمة زهرة بن عبد الله بن قتادة، وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم صحابى رسول الله ﷺ، وجعل على الميسرة

شرحبيل بن السمط بن شرحبيل الكندى، وجعل على الساقة (المؤخرة) عاصم بن عمرو التميمى العمرى، وكلف سواد بن مالك التميمى بأعمال الدوريات، وجعل على الخيل سلمان بن ربيعة الباهلى، وجعل على المشاة حمال ابن مالك الأسدى، وكلف عبد الله بن ذى السهمين الخثعمى بشئون النقل والحملة، وهى تعدل الشئون الإدارية فى عصرنا.

وجعل سعد بن أبى وقاص خليفته ورديفه خالد بن عرفطة.

وكان داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ.

ثم جاء الأمر من عمر بن الخطاب بتحرك الجيش ومواصلة المسير، وسار الجيش حتى وصل القادسية، وأقام بها ينتظر المجوس أن يوجهوا إليه قواتهم، وكان سعد بين الحين والحين يبعث السرايا تشن الغارات هنا وهناك،

أسد القادسية

نهض أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بعد وفاة الرسول ﷺ لحرب المرتدين، وعـقد الألوية ووجهـها إليهم، فـأخذت تضربهم بقوة الله حتى ردتهم إلى الجماعة، ثم أمر أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ جيش اليمامة الذى هزم مسيلمة الكذاب فى شـرق الجزيرة أن يسـير إلى الـعراق، فـالتقى جـيش المسلمين بقيـادة خالد بن الوليد بالفرس وهزمـهم فى عدة معارك، وفتح الله على المسلمين بعض المدن مثل: كاظمة، والأبلة، والمذار، والولجة، وأليس، وأمغـيشيا، ثم واصل المثنى بن حارثة فتوح المسلـمين بالعراق بعد أن ذهب خالد بن الوليد إلى الشـام ليعاون جـيش المسلمين هناك، وكان الفرس آنذاك فى نزاع على الملك، فـرأى قائد المسلمين أن

يتقدم إلى داخل بلادهم ويفتحها وأقبل إلى المدينة ليستأذن الخليفة، وكان أبو بكر مريضا فاستمع إليه وود أن يقوم بنفسه ليدعو الناس إلى الجهاد، ولكن المرض كان قد اشتد عليه، فدعا عمر بن الخطاب الذى اختاره خليفة بعده وأوصاه أن يكون أول عمل له تيسير الجيوش إلى فارس.

ومات أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - واختار المسلمون عمر بن الخطاب خليفة بعده، وكان الفرس قد أجمعوا أمرهم على قتال المسلمين بعد أن نصبوا عليهم ملكًا يسمى يزدجرد، وعلم قائد المسلمين فى بلاد الفرس بما أجمع عليه الفرس، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فلما وصله الكتاب صاح فى ثقة: «يجتمعون أو يتفرقون! والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب».

وأرسل عمر إلى عماله فى الجزيرة أن يدعوا المسلمين إلى القتال، فامتلأت المدينة بالمحاربين الشجعان، وخرج بهم عمر إلى مكان قريب من المدينة على طريق العراق ليسير بهم من هناك، ولكن أصحابه أشاروا عليه أن يبقى

وكعادة المسلمين، أرسل سعد إلى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام قبل المعركة، ودخل هؤلاء الرسل على كسرى وعزة الإسلام تعلو وجوههم. وكان قائدهم النعمان بن مقرن صاحب رسول الله ﷺ، فدعوا ملك الفرس إلى الإسلام فثار وغضب وأمر جنوده أن يأتوا بحمل من تراب وأمرهم أن يحملوه على أشرف هؤلاء الرسل.

فقام عاصم بن عمرو وقال: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء.

فحمله على عنقه، وظل يحوطه بيديه على حذر حتى وصل مع إخوانه إلى قائدهم سعد فألقاه بين يديه صاحئًا في سرور.

أبشر يا سعد، فقد جئنا إليك بأرض فارس، فتوكل على الله وما النصر إلا من عند الله.

ووصل رستم قائد الفرس القادسية في جيش عظيم عدده مائة وعشرون ألفًا مزودون بالسلاح والعتاد، وخمسة

وثلاثون فيلا مدربة على الحرب ولكنه كان يخشى المسلمين، فأرسل إلى سعد أن يبعث إليه من يكلمه فأرسل إليه ربعى بن عامر، فدخل عليهم ربعى وهو يركب فرسه، وسيفه فى يده قد لف مقبضه بخرقة قديمة، وسار بفرسه على البسط الثمنية حتى اقترب من رستم، فنزل وأمسك بزمام فرسه، وربط زمام الفرس بوسادتين من الحرير المطرز بالذهب، والفرس يمتلئون منه غيظًا، ووقف ربعى شامخًا معتزًا بدينه، ينظر إليهم نظرات ساخرة، فقال له رستم: ما الذى جاء بكم أيها العربى إلى بلادنا؟

فقال ربعى فى ثقة: جئنا لنخرجكم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن الجور إلى عدل الإسلام، وقد أرسل رسولنا بالحق إلى الناس كافة، ثم أخبرهم ربعى أن الإسلام أمرهم ألا يمكنوا الأعداء أكثر من ثلاثة أيام ثم يعرضوا عليهم ثلاثة أمور يختاروا منها واحدًا: إما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب، ثم عاد ربعى إلى سعد وحدثه بالأمر.

ورأى الفرس أن يطلبـوا رسولاً آخر يفاوضـونه، فربما يكون الرسـول الأول قد نقل إلى سـعد ما رآه من عـظمة فأخافه.

فأرسل سعد إليهم المغيرة بن شعبة، فكان حديثه معهم ينبض بالعزة والكرامة، وخرج من عندهم ينذرهم بالحرب بعـد ما رأى كبـرهم وغرورهـم. وعاد وأخـبر سعـد بما حدث.

وأرسل الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى سعد بن وقاص رسالة يقول له فيها:

أما بعد، فتعاهد قلبك، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة، ومن غفل فليحدثهما.

والصـبر الصـبر، فـإن المعونة تأتى من الله على قـدر النية، والأجر على قدر الحسبة.

والحـذر الحذر على مـا أنت عليه ومـا أنت بسبـيله،

واسألوا الله العافـية وأكثروا من قـول لا حول ولا قوة إلا بالله.

واكتب إلى أين بلغك جمعهم، ومن رأسهم الذى يلى مصادمـتكم، فإنه قد منعنى من بعض مـا أردت الكتابة به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم، فصنف لنا منـازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها، واجعلنى من أمركم على الجلية.

وخف الله وارجُه ولا تُدل (تغـتـر) بشىء، واعلم أن الله قد وعدكم وتوكل لهذا الأمـر بما لا خلف له، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم.

فكتب إليه سعـد يصف البلد وصفًا مفصـلا، وأخبره بحـال جيش المسلمين، وأن قـائد الفـرس فى المعركـة هو «رستم».

فكتب عمر إليه قائلا:

قد جائى كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينغض الله

لك عـدوك، واعلم أن لهـا مـا بعـدها. فـإن منحك الله أدبارهم فـلا تنزع عنهم حتى تـقتـحم عليهم المدائن فـإنه خرابها إن شاء الله.

وجعل عـمر ومن مـعه يدعون لسـعد ومن مـعه من المسلمين.

وكـان رستـم قائد جـيش الفـرس لا يرغب فى لقـاء المسلمين، إلا أنه رأى من السـياسـة أن يتظاهر بقبـول أمر الملك عندما عرض القيادة عليه، وقد حاول رستم مرارًا أن يثنى عزم يزدجرد ملك الفرس عن قتال المسلمين، وقال له فى إحدى المرات: إن الأناة فى الحـرب خيـر من العجلة، وللأناة اليوم مـوضع. وقتال جـيش بعد جـيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا.

ولكن الملك لم يقتنع بذلك، وأصر على خروج جيش الفرس لقتال المسلمين، فـخرج رستم ومن معه من الجنود مكرهين، وقد ملأ الخوف من لقاء المسلمين قلوبهم.

ورأى سعد أن يرسل إلى رستم ثلاثة من أصحابه يدعونه إلى ما هو خير من الحرب، فلما وصل الرسول إليه ظن رستم أنهم قد جاءوا للمصالحة.

ولكنه وجد كلامهم لم يختلف عن سابقيهم، وعرضوا عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختار رستم الحرب.

وفى شهر شعبان عام ١٥ من الهجرة، بدأت أحداث معركة القادسية، حيث أعد سعد جيشه للقاء عدوهم، ونادى منادى سعد فى جيشه:

« ألا إن الحسد لا يحل إلى على الجهاد فى أمر الله يا أيها الناس، فحاسدوا وتغايروا على الجهاد».

وفى ذلك الوقت، كانت الدمامل قد ملأت جسد سعد فمنعته من الركوب بل حتى من الجلوس، فلم يستطع أن يركب ولا أن يجلس، فاعتلى القصر، وأكب من فوقه على وسادة فى صدره يشرف على الناس،

وأسفل منه فى الميـدان خليفته خالد بن غـرفطة يرمى إليه من أعلى بالرسائل فـيها أمره ونهـيه، وكان آخر صـفوف المسلمين إلى جانب القصر.

وأرسل سعد إلى كبار رجال جـيشه وأمرهم أن يحموا من معـهم من المسلمين ويحـثونهم على الجـهاد، وأرسل سعد أمرًا إلى جيشه :

« إلزمـوا مواقـفكم، ولا تحركـوا شـيئًا حـتى تصلوا الظهـر، فإذا صليـتم الظهر فـإنى مكبر تكبـيرة، فكـبروا وشدوا شسوع نعالكم، واستـعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم، واعلموا أنما أعطيـتموه تأييداً لكم. فإذا كبرت الثانيـة فكبروا وتهيئوا ولتستتم عـدتكم، فإذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فـرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا. فإذا كبرت الرابعة فـشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله».

وكان عمر -رضى الله عنه- قد أرسل إلى سعد غلامًا من القراء، فلما صلوا الظهر أمر سعد الغلام أن يقرأ سورة الجهاد - وهى سورة الأنفال - وكان المسلمون يتعلمونها كلهم، فقرأ على أقرب الكتائب إليه، فقرئت فى كل كتيبة، فهشت قلوب الناس وعيونهم، وعرفوا السكينة مع قراءتها.

والتحم الفريقان، واندفعت أفيال الفرس فى صفوف المسلمين، فأحدثت فيهم اضطرابًا، فصاح سعد فى الرماة ليضربوا الفيلة، ففعلوا، فاضطربت الفيلة، وانطلق المسلمون خلفها يقطعون أحزمة الصناديق التى كانت فوقها، فوقعت الصناديق على الأرض، وداستها الفيلة بأقدامها، وظل المسلمون يقتلون فى الفرس حتى جاء الليل، فتراجع الفريقان.

وفى اليوم التالى، التقى الجيشان، ولم تدخل الفيلة ساحة المعركة، وجاء المسلمين بإبل وألبسوها أقنعة فى وجوهها، ودفعوها فى وجه الفرس فلما رأتها خيول

الفرس هربت من المعركة، وقتل المسلمون عددًا كبيرًا من الفرس.

وفى صبيحة اليوم الثالث، دفع الفرس بالفيلة مرة أخرى، ولكن خيول المسلمين لم تفر منها فلقد عرفتها قبل ذلك، وكان يقود الأفيال فيلان ضمان، فصاح سعد بجنده يوجههم إلى الفيلين، فقتلوا أحدهما وقطعوا خرطوم الآخر، وفقئوا عينه، فهرب إلى النهر وعبره، فهربت الفيلة كلها وراءه، وأصبح الفريقان وجهًا لوجه بسيوفهما فى ساحة القتال، وكانت سيوف المسلمين تحصد رءوس الفرس.

وتعلقت أنظار المسلمين بمنظر عجيب، فقد ألقى أحد كبراء الفرس بنفسه فى النهر، فسبح خلفه أحد جنود المسلمين وهو هلال بن عَلّفة التيمى وأمسكه من رجله، وأخرجه إلى الشاطئ وضربه بسيفه فقتله، وصاح بأعلى صوته: قتلت قائد الفرس، قتلت رستم ورب الكعبة.

فارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير فتزلزلت الأرض

من تحت أقدام الفرس، فأسرعوا بالفرار تاركين سلاحهم، وغنائم عظيمة وألوفًا من القتلى والجرحى.

وانطلقت صيحات التكبير:

الله أكبر.. الله أكبر

فلما تحقق النصر أسرع المسلمون إلى قائدهم سعد بن أبى وقاص فوق القصر يهنئونه بنصر الله.

وانطلق المسلمون إلى ساحة القتال يدفنون شهداءهم.

لقد كان جنود القادسية من خير الجنود، مما جعل قائدهم سعد يقول فى حقهم: والله، إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وأيم الله على فضل أهل بدر!! لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات (هفوات) فيما أحرزوا، ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم.

وعن جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما- قال: والله الذى لا إله إلا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر، فما

رأينا كالذى هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم: طلحة بن خويلد، وعمرو بن معد يكرب، وقيس بن المكشوح.

ثم أرسل سعد إلى عمر يبشره بنصر الله للمؤمنين، وينتظر منه الأمر بالمسير إلى المدائن، وقد كتب إليه يقول:

أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد. ولقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراء مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج..

وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء، وفلان وفلان... ورجال من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود. ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم.

وأرسل سعد هذه الرسالة إلى عمر مع سعد بن عميلة الفزارى.

هكذا شرح سعد لأمير المؤمنين كيف انتصر المسلمون، وحدثه عن صفات جنود المسلمين الذين تمتلأ قلوبهم إخلاصا لله، فبأمثالهم ينتصر المسلمون على أعدائهم.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخرج كل يوم فى الصباح إلى ظهر المدينة يستخبر القادمين عن أهل القادسية، فلما لقى سعد بن عميلة قادمًا من القادسية سأله: من أين؟

قال: من القادسية.

قال عمر: يا عبد الله حدثنى.

قال سعد: هزم الله العدو.

وكان سعد يجيب عمر عن أسئلته وهو راكب فوق ناقته، وعمر يمشى إلى جانب الناقة، فقد كان سعد بن عميلة لا يعرف عمر.

فلما دخـلا المدينة وهما على ذلك فـإذا الناس يقولون لعمر: السـلام عليكم يا أمير المؤمنين. فقال سعـد: فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين.

فجعل عمر يقول: لا عليك يا أخى.

وقام عمـر فى الناس، وقرأ عليهم كتـاب سعد الذى يبشره فيه بنصر الله.

فـفـرح المسلمـون بنـصـر الله، وارتفـعت أصـواتهم بالتكبير، وحزن عمر حزنًا شديدًا لاستشهاد سعد بن عبيد ـ رضى الله عنه ـ.



فتح المدائن

أرسل عمر - رضى الله عنه - إلى سعد يأمره بالمسير إلى المدائن، فلما وصل الخبر إلى جيش المسلمين فى القادسية، ارتفعت أصواتهم بالتكبير، لاقتراب تحقق بشرى رسول الله ﷺ بزوال ملك فارس.

وانطلقت جيوش المسلمين لتتم مسيرة الجهاد، وتمزق جيوش الفرس التى تعترضها حتى بلغت المدائن الدنيا فى غرب دجلة، وكانت حصينة منيعة، فصنع المسلمون القذائف التى انطلقت لتهز الأسوار المنيعة.

وخرج الفرس من وراء الأسوار لملاقاة المسلمين، فتصدى لهم المسلمون، وحصدوا رءوسهم، فهرب الفرس وولوا الأدبار، وأغلقوا عليهم الأبواب، وبدءوا يقذفون

القذائف بالمجانيق فى غير وعى، ولكنها كانت تسقط بعيدًا عن المسلمين، فلما جاء الليل هدأت المجـانيق فأدرك سعد أن ما حدث كان تغطية لانسحاب الفرس من المدائن الدنيا إلى المدائن القصـوى، وسرعـان ما جاء صـوت من فوق السور يخبر المسلمين بفرار الفرس، فانطلق جيش المسلمين وتسلقـوا السـور، وفتـحـوا الأبواب، وانطلقت أصـوات المسلمين بالتكبير، ولم يهدأ التكبير حتى أشرقت الشمس.

وبدأ سعد يفكر فى إتمام فتح المدائن، ولكن كيف يتم ذلك وبينه وبينهـا نهر مـتدفق، ولكنه نام ذات ليلـة فرأى رؤيا عجيـبة، فأصبح يقصـها على جنوده، قائلاً : رأيت الليلة خيلنا تخوض الماء ونحن على صهـواتها. فانبسطت أسارير المسلمين، وأيقنوا بتوفيق الله، وفى الصباح انطلقت خيـول المسلمين تعبر النهـر عائمة ففـزع الفرس وانخلعت قلوبهم مـن الرعب، ولاذوا بالفـرار، وفـر يزدجـرد بما استطاع إلى حلوان فى الشمال الشرقى من المدائن، ودخل المسلمين المدائن، ووصلـوا إلى إيوان كسـرى، وارتفـعت

الأصوات:

الله أكبر.. الله أكبر.. هذا ما وعد الله وصدق الله ورسوله.

ووقف المسلمون مبهورين بمبانى المدائن وقصورها، ووقف سعد دامع العينين يلهج لسانه بحمد الله وتذكر رسول الله ﷺ وتذكر بداية الإسلام، ثم نظر إلى ما حوله فى خشوع، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ .

وبدأت جنود المسلمين تتبع فلول الفرس فى كل مكان ويتعقبونها. وعاد سعد إلى مكان غربى الفرات، وأقام فيه مدينة الكوفة وأقام بها، يدير ما فتحه من البلاد، ويرسل قواده يفتحون مدن الفرس مدينة بعد مدينة، ومكث بها ثلاثة أعوام ونصف، استدعاه بعدها عمر إلى المدينة، فظل عامين بمدينة رسول الله ﷺ.

لقاء الله

ولما طعن عمر بن الخطاب، أوصى أن يكون سعد من الستة الذين يختار من بينهم خليفة للمسلمين، فانتهى الستة إلى اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، فولى عثمان - رضى الله عنه - سعدًا الكوفة مرة ثانية، ومكث سعد فى ولايته هذه المرة عامًا وبعض عام، عاد بعدها إلى المدينة، فأقام على مقربة منها قصرًا فسيحًا يعيش فيه بقية حياته.

ولما حدثت الفتنة الكبرى بين على ومعاوية كان سعدًا بعيدًا عنها، وطلب من أولاوده ألا ينقلوا إليه شيئًا من أخبارها.

وأيامها ذهب إليه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبى

وقاص، وقال له: يا عم، ها هنـا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر.

فقال سعد: أريد من مائة ألف سيف، سيفاً واحدًا.. إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئًا، وإذا ضربت به الكافر قطع.

إن سعـدًا يريد أن تظل سيوف المسلمين موجهـة ضد أعداء الإسلام، تدافع عن دين الله، وتزيد من رقعة أرض الإسلام.

وفى العـام الخامس والخمـسين الهجـرى، كان سـعد الذى بلغ الثمـانين من عمره يسـتعد للقـاء الله، يقول ابنه مصعب بـن سعد: كان رأس أبى فى حجـرى وهو يقضى فبكيت، فقـال: ما يبكيك يا بنى؟ والله إن الله لا يعذبنى أبدًا، وإنـى من أهل الجـنة، إن الله يديـن للمـؤمـنين بحـسناتهم فـاعـملوا لله، وأمـا الكفار فـيـخـفف عنهم بحسناتهم، فإذا نفدت قال: ليطلب كل عامل ثواب عمله

ممن عمله له.

وفى لحظاته الأخيرة دعـا بجبة قديمة كان يلبـسها يوم بدر، فلما أحـضروها أمامـه قال: كفنـونى فى هذه فإنى لقيت فيها المشركين يوم بدر، وإنما خبأتها لهذا اليوم.

واستـرد الله وديعته، وسكن الجسـد الذى طالما جاهد فى سـبيل الله، ووقف أحـباؤه حـول جثـته ثم غـسلوها وكفنوها فى جـبة بدر ليلقى الله برائحة الجهـاد الذى كان أحب شىء إلى قلبه فى هذه الحياة.

وكانت وفاة سـعد بالعقيق خارج المـدينة، فحمل إلى المدينة على أعناق الرجال، فـصلى عليه مروان بن الحكم، وصلى عليه أمـهات المؤمنين البـاقيات الصـالحات، ودفن بالبـقـيع ـ رضى الله عنـه وأرضـاه ـ إلى جـانب المؤمنين الصادقين من أصحاب رسول الله ﷺ.



رقم الايداع
٩٨/١٣٨٤٨
الترقيم الدولى
٩٧٧ ـ ٢٦٥ ـ ٢٢٨ ـ ٥

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣